شعريّة الكون
القمر الشعري مثالاً

أ.م.د. سلام كاظم الأوسي
كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة :

للكون أسراره الخفية ، وهذه الأسرار مثار دهشة الإنسان بعامة ، والشاعر بخاصة ، وعلى وفق ما يمنح هذا الكون من سره ودهشته للإنسانية يظل الإنسان توّاقا لاستكشاف ما يكمن من علل وأسرار ، فارتبط بهذه الأسرار شعورياً ولا شعورياً ، ولمّا كان القمر أبرز هذه الظواهر الكونية وأكثرها أثراً هو والشمس فقد عبده الإنسان ، وعشقه الشاعر ، فاخذ يقرن بينه وبين الحبيبة ، وأصبح القمر سمير الليالي ، وملاذ المتوحّدين ، ومن سحر الطبيعة الكونية وُلِد الشاعر، ومعه وُلِد خياله الشعري ، ومن المخيّلة الخلاّقة أيقظ الجمال في الصخور الميتة ، فما عاد القمر أحجاراً ، ولم تستطيع صور المركبات الفضائية أن تفسد حلم الشعراء ،لان الفنان - الشاعر أضفى على العالم من شعوره ، ومن خلال تصويره حوّل ما كان واقعياً ، جامداً إلى تصوير إيحائي ، رمزي ، ونقل المتناهي في هذا الكون الى اللامتناهي ، فالفن عند الشعراء ذلك الكائن الذي يتنفس من رئة الشعر هواءه ، ويتحسس عوالم البشر بعد ان تم تشخيصه وإضفاء صفة الآدمية عليه ، ذلك بعد أن ترقبه الفنان- الشاعر في دورته الوجودية ، وبذا يمكننا من خلال هذا البحث – العبور من النص إلى العالم بحثاً عن شاعرية الكون ، ممثلة بشعرية القمر .. ففي شعرية القمر كما يرى مالارميه : ((تكمن خاصّية من أكثر الخواص غرابة في الفن ، إنّها حسّاسية الكون ، تلك التي تشكل الخاصية الشعرية)) .

التمهيد : شعريّة الكون ورؤى الفنان الشاعر

ما الكون ؟ سؤال قديم ، ما شعريّته ؟ سؤال متجدد . فالأسطورة ، والعقل المثالي ، والمادي والفلسفات ، والعلوم جميعاً لم تتردد في الإجابة عن ماهية الكون ، ولكنَّ إجابتها كانت مقصورة على الكون الخارجي ، فالفضاء الخارجي بكلِّ ما يحتويه اسم خاص ...هو الكون ، ومازال في الكون الكثير مما لا يتمكن علماء الفلك رؤيته في مناظيرهم الفلكية ، حيث المزيد من النجوم والمجرّات - وفضاء يعقبهُ فضاء ، وليست حدود الكون هي حدود مجرّتنا التي وصلنا إليها في هذه اللحظة ، وليست مجرّتنا هي الوحيدة من نوعها التي تسبح في الفضاء.

إنَّ التقديرات العلمية الأولية ترى أنَّ أبعد المجرّات التي أمكن تصويرها حتى الآن نحو ألف وستمائة مليون سنة ضوئية ، وكلما تتابعت دراسة المجرّات ، توالت الصدمات التي يتلقاها الفلكيون مما وصلوا إليه من نتائج ، وكانت أولها ضخامة الكون ، وإتساع رقعته الهائلة ، والعدد الكبير من المجرّات التي أمكن حصرها بما لديهم من الإمكانات كان الكون ولم يزل يتحدّانا بغموضه وأسراره ، ولو أمكن كشف هذه الأسرار لتحدد لنا الماضي والمستقبل ، ولكننا الآن نستطيع أن نرجّح فقط إحتمالاً على آخر لأننا نكون كمن يستغيث من الرمضاء بالنار، وحين يحدد لنا فلكيٌّ كبير كالسير جيمس جينس تصوّراته بالقول : (أمامكم عرض كبير من النظريات المختلفة إختاروا منها ماتشاؤون ، ولكنّي شخصياً لا أضع ثقتي في أي منها)[1]، ندرك مدى عمق الكون وضآلة الرؤيا حوله .

فالمسلمات بإزاء أسرار الكون غير موجودة ، بل هي مستترة ، خفيّة ، وهي مثار دهشة واندهاش للموحّدين من البشر بعالم هذا الكون الزاخر ، وعلى وفق ما يمنح الكون من سرٍّ ودهشة

للإنسانية يظل الإنسان توّاقاً لاستكشاف ما يكمن فيها من علل وأسرار ، فارتبط بها الإنسان شعورياً ، وأنسن حركتها ، حتى إعتقد أفلاطون فيلسوف المثالية ومعه فلاسفة آخرون بأنَّ للكواكب في الكون عقولاً ونفوساً ، وأنّها تؤثر بقواها على بني البشر ، وقد تأثر الفلاسفة المسلمون بذات المعتقد فقد طرحتْ رسائل إخوان الصفا بعض هذه المعتقدات التي ترى في الكواكب قدرات خارقة : عقلية ونفسية ، إذ يقولون : "ولما كانت الكواكب ذوات نفوس وأجسام ، لها أفعال جسمانية ، وأفعال روحانية في النفوس ، كذلك وجدت في الجسد سبع قوى جسمانية ، وهي القوى الجاذبة ، والماسكة والهاضمة والرافعة ، والغاوية ، والنامية والمصوّرة ، وسبع قوى أخرى روحانية ، وهي القوى الحسّاسة ، أي : الباصرة والسامعة والذائقة والسامّة واللامسة ، والقوة الناطقة ، والقوة العاقلة ، والقوة الحسّاسة ، وانهم يعتقدون بكون القوة الناطقة مناسبة للقمر ودورتهِ ، والقوة العاقلة مناسبة للشمس ودورتها[٢].

يعني ذلك إنَّ الكون لم يعد في نظر العقل الإنساني مجرد كُتل كونية لها مدارها وعالمها إنما إرتبط بالمخيّلة الخلاّقة للإنسان ، ولذلك تجلى هذا الخيال في التعليل الأسطوري لحركة الكون والوجود والطبيعة ، وصار الحديث عن الطبيعة ومحرابها ينصب في أجلى معانيهِ على هذا الوجود المادي الذي حولنا ، ودراسة ما توفر لنا على الأرض من كلِّ شيء نلمسُه ، او نحسُّ بهِ ، او يؤثر على كياننا ، من بحارٍ وجبال وصحارى ، ورمال ، وروعة وجلال ، ودعة وأهوال ، وجنات وعيون ، وبرد وسموم ، وعواصف وسكون ، وهدوء وثورات .

إذن تلك هي عين محراب الطبيعة الكونية التي ننشدها والتي طالما تغنى بها الشعراء ووصفوها على مرِّ العصور .

من سحر هذه الطبيعة الكونية وُلِد الشاعر ، ومعه ولدَ خيالُهُ الشعريّ ، ومن المخيّلة الخلاقة أيقظ الجمال في الصخور الميتة ، لان (أعظم مهمات الشعر أنْ يثير في قرائه الصرخة . صرخة الطبيعة ويفجّر فيها ينابيع الشعور الإنساني ، الفنان الشاعر في جوانب كثيرة يمثل محاولات شاقة وهو في طريق الاستكشاف . لم تكن تخلو من عسر ، وتعثر ، وتردد ، وتحسّر ، ومغامرة ومخاطرة ، وقلق ولهفة وصبر، وجلد)[٣]، كأنّنا نراه في رحلته الإنسانية الفنية (ذا ترقب دائم ، وتأهّب مستمر ، وكأنّما يطارد الأحاسيس ، ويتصيّد الانطباعات ، باحثاً بإستمرار عن القيم الجمالية الجديدة ، والمعاني الوجدانيةِ الأصيلة)[٤].

لا شك أنَّ الشعر قوة ثانية للغة وطاقة سحر وافتنان ، وموضوع (علم الشعريّة) هو الكشف عن أسرارها)[٥] ، إذ (أنّ مهمة الأدب هي خلق الجمال ، وأن يثير فينا إنفعالاً خاصّاً ..وانه يجعل العالم إنسانياً من خلال الاندماج مع الكون وأسراره)[٦] . ومثلما إستطاع الفنان أن يحيل القلب من جهاز اجوف ملؤه الدم والأنسجة إلى رمز للمشاعر والأحاسيس والدفء والحنان والحب الأبدي بقدرته التعبيرية فأنه إستطاع أن يضفي الشعريّة على العين من خلال منحها الإيحاء بالانتصار والانكسار النفسيين ، ومن خلال التشكيلات التصويرية التي تمنح العيون لغات دالة على الحزن والفرح ولحظات الهيام والسهاد ، وهكذا فإنَّ هذا الفنان – الإنسان الذي أضفى على العالم من شعوره - فجعل الكون شعرياً - صار حريّاً به أن يتجاوز من خلال تصويره ما هو واقعي- جامد الى تصوير إيحائي ، رمزي ، وينقل إلينا عوالم الطبيعة والكون من المتناهي إلى اللامتناهي ، ألم يقل سبندر مرّةً : (كلُّ شيء يتحرك نحو البحر)[٧]، ذلك إنَّ البحر يمثل الموت والخلود والحكمة محصورة في كون ذلك يمثل إحدى الحقائق الشعريّة العامة ، التي تمثل ثنائية الوجود ، وهنا تتشكل التماثلات والتجسيدات اللغوية التصويرية بانتقالات الفنان الشاعر من ضفة المطابقة اللغوية مع العالم الى لغة التجاوز واللامطابقة مع العالم ..

إنَّ الأديب ، والشاعر يبحثان عن الضفة المجهولة ، وعن الظلال الموحية الساحرة ، وعن الرمز الخالد ، ومن هنا لم يعد القمر كوكباً صخرياً ، يحمل جبالاً وفوهات براكين ويمتلك معادن ، ويعيش على خاصيّة الانعكاس لضوء الشمس ، أو أنْ يكون المد أقوى عندما يكون قمراً او محاقاً .

ان القمر عند الشعراء كائنٌ شعريٌّ يتنفس من رئة الشعر هواءً ، ويتحسس عوالم البشر بعد أن أنسنهُ الشعراء ، وترقبه في دورتهِ الوجودية ، وبذا يمكننا من خلال هذا البحث : العبور من النص الى العالم في بحثنا عن (شاعرية الكون) ممثلة بشاعرية القمر وعن وجود الإنسان فيه .

يقول مالارميه : "أنَّ الشعر يقوم على الإبداع ، وينبغي أن يؤخذ داخل النفس الإنسانية كما هو ، في ومضة صافية ، خالصة"[٨]. ففي شعريّة القمر "تكمن خاصيّة من أكثر الخواص غرابة في الفن ، وهي تلك التي تجعل شيئاً ما حسّاساً ، ولكن ليس بطريقة الحسّاسية العادية ، وهذا النظام الخاص للحسّاسية ..إنّها حسّاسية الكون تلك التي تشكّل الخاصيّة الشعريّة"[٩] على حد قول الشاعر (فاليري) .

(١)
شعريّة القمر بين الرومانسيين والظاهراتيين

ربما أفسد الفضائيون الأمريكيون شاعرية القمر ، بيد أنّهم لم يهدموها ..لأنَّ القمر يستمد قوته من ظروف إدراكه . فالقمر مرتبط بالليل وبالشعر ، ومن الليل والشعر يصنع خصائصه الجمالية .

لقد أعاد الرومانسيون إكتشاف الإنسان لشاعرية الكون ، بل انهم أعادوا إكتشاف شاعرية القمر الكوني من خلال الجمع بين الوعي الحلمي والوعي الشعري ، إذ أنَّ (التناظر بين الحلم والشعر هو واحد من إكتشافات الرومانسيين ، فليس الحلم إلاّ شعراً غير إرادي ..وداخل الخيال يجد الشعر والعلم توحّدهما)[١٠] ، وكثيراً ما يحقق الخيال الخصب للفنان الشاعر تلك الخصوصية التي تجسّد شعريّة الكون وشعريّة القمر، (فالغنائية الشعريّة تنشد الانسجام الكوني ، وتثير جمال موسيقى الوجود بعاطفة منغّمة بالشجو والحنان)[١١] . أما الفلاسفة الظاهراتيون فقد درسوا وعللوا سر جمالية الكون و القمر وربطوا بين المشاعر الخفيّة للوجود والمشاعر الخفية للإنسان، وهكذا فإن (الظاهراتية تبين لنا الطبيعة الباطنية لكلٍّ من الشعور الإنساني والظواهر)[١٢]. من هنا كانت شعريّة القمر قاسماً مشتركاً بين الرؤى الجمالية الرومانسية وتجليات التعليلات الظاهراتية ، ومن هنا نجد رؤى كوليردج ، وبيتس وفيكتور هيجو ودي موسيه من الرومانسيين حول شعريّة القمر ، مثلما نرى رؤى كاسيرر باشلار وتلامذتهم من الظاهراتيين ، يقول جون كوين في كتابة اللغة العليا :

" في هذا الكون يوجد موضوع شعري بين كل المواضيع ، أطروحة ، ثابتة للسفر في كل الأزمنة والأمكنة والثقافات ، هو القمر ، أو بصورة أدق ضياء القمر ، لان قمر النهار ليس شعرياً ، وليس مثل قمر الليل ، فقط عندما ينشر ضوءه الناعم الغريب ، عندئذ يصبح شعريا"[١٣] فأين تكمن شعريّة القمر على وفق الرؤى الرومانسية والظاهراتية ، هل في نوره ، أم في استدارته أم في نمط مشاركته للذات الإنسانية ، ام في مجمل تأثيراته الجنونية والطبية على الطبيعة وعلى بني البشر ؟؟

تلك أسئلة تشغل ساحة الدهشة الإنسانية ، فكل شيء يتحرك حول اللغز الإنساني ، وإظهار اللحظات المستترة للمصير باتجاه النور ، ولا شك ان الدهشة تنطلق من الحقيقة الكافية في مفارقاتها القائمة على التناقض ، والشعر وحده يصحبنا إلى الأغوار السحيقة ، الغامضة الفاغرة أبوابها في باطن الكون ، ومن باطن الإنسان .

أسئلة تشغل مساحة الدهشة الإنسانية ، فكلُّ شيء يتحرك حول اللغز الإنساني ، وإظهار اللحظات المستترة للمصير الى ذلك النور المتجلّي .ولا شك أنَّ الدهشة تنطلق في الحقيقة في مفارقاتها القائمة على التناقض واللامعقول ، والشعر وحده الذي يصحبنا إلى الأغوار السحيقة الغامضة ، الفاغرة أفواهها في باطن الكون ، وفي باطن الإنسان

أولاً : جمالية نورانية القمر

ان (الضوء دون شك أغرب الأسرار قاطبة طالما إنّ أمواج الضوء ، او ذبذباته تنفذ في الفراغ الذي يملأ الفراغ الكوني ويتخلل كل شيء حتى المادة الصلبة)[١٤] .

وعبر أشد أنوار القمر كثافة ، وعبر أشد الكلمات كثافة - أي أشد المعاني الجمالية كثافة - تلك التي من خلالها تبصر العوالم الخفية ويظهر التصوّر في تجسيد الفكر الظاهراتي ، والرومانسي لكلٍّ من ذات الكون وذات الإنسانية والحقيقة الثابتة هي أن القمر وهو يتشرب ضوء الشمس ابتداء من أيامه الأولى ، وفي دورته الفلكية – يكون البداية الضوئية لما نطلق عليه (ولادة الهلال) ، ثم يتسع الضوء حتى يصل الى مرحلة اكتماله في الليلة الخامسة عشرة ليصبح بدراً ، ويبدو ان الضوء المنبعث من البدر يشع متكاملاً ، واسعاً ، وانه يشع بنور صاف ومتوازن ، ليس فيه ضعف ويصير أقل من المعتاد في الحالة المتلبدة بالغيوم ، ولم يكن شديد الإضاءة مثلما هي في حالة ضوء الشمس ، ولعل هذا الضوء المتوازن المنبعث من القمر يتوازن مع الذات الإنسانية ، فيمنحها نوعاً من التوازن الإنساني من هدوء ، وراحة بال ، اذ ان التوازن يسيطر على القلق دون شك في ذلك ، وهذا ما يفسّر رغبة الإنسان العربي في الصحراء بالاحتفاء والاحتفال بالليالي المقمرة وجعلها ليال للسمر والمؤانسة لأنها تبعث على الهدوء والدعة ، وهذا ما يفسر الإحساس بجمال الطبيعة ذات الليالي المقمرة ، ومن هنا يمكن ان نفسر البهجة الإنسانية بضوء القمر في خلقه توازنا وتناغماً مع النفس الإنسانية ذات الحساسية الطبيعية ، بيد أن هذا الضوء القمري لا يحتمل عند أصحاب الحساسية العالية ، كما رأينا في مبحث جنون القمر ، إذ يستقبل الشخص الحساس تلك الليالي المقمرة بشكل اكثر حدة وانفعال ، وحينئذ تزداد القدرات التعبيرية تركيزاً عند الشعراء ، والفنانين ازاء مشهد القمر وتأثيره كذلك يمكن ان نتلمس تفسيراً فلسفياً لانشغال الإنسان بالقمر المضيء ، فالإنسان في طبيعته يخشى الظلام الذي يعني عنده : المجهول ، والمبهم فهو لا يدرك شيئاً عن ذاته ، او عن العالم من حوله ، وهو في عالم الظلام الأول ، أي الزخم ، ثم انه متوجه لا محال إلى عالم مظلم هو القبر ، فبين ظلامين يعيش الإنسان حالة من الحيرة والاضطراب اوالقلق الإنساني ، ونور القمر يحقق للذات انتصاراً على الظلام ، وعلى الضباب ، والتعاسة وانه يمنحنا وسطاً سعيداً مشرقاً وضاح الجبين كما وصفه الشعراء ، نور بين ظلامين (رحم وقبر) ، ثم انه يمنح الكون والإنسان ضوءاً دون أي تأثير سلبي كما تفعل الشمس ، فالشمس في عنفوانها تحقق نفعاً لأمتعة حتى في تأثيرها على الطبيعة ، بدليل ان سحر الطبيعة يبدأ مع لحظات غروب الشمس وهدوء ضوئها ، في حين يحقق ضوء القمر متعة جمالية أكثر منها نفعاً ، ولذلك لاذ الفنانون بالقمر بوصفه صديقاً وعاشقاً ومعشوقاً وفي شعريّته تحقق واحدة من ابرز تجليات شعريّة الكون ، اذ يتحقق الحضور الكامل للفن ، حيث الانفتاح الكلي بين المشاهد(الفنان) والمشاهد الكونية ، المتجليّة إذ تكمن خاصيته من أكثر الخواص غرابة في الفن متمثلة في شاعرية القمر و (شاعرية القمر تنبعث من صفات خاصة بالضوء ، وخلال كثافته الضعيفة ينشر إضاءة غامضة وفارق الصورة ، والعمق يتلاشى ، وكلّ موضوع يحاول ان ينغمس في المجال المجاور ، وكل صورة تمتلك في ذاتها محيطاً تابعاً لها ويشكل حدوداً غير قابلة للاجتياز وفي ضوء القمر كل موضوع يلمح على انه شكل ضعيف ، وهو من خلال هذا ينزع إلى الذوبان في الفضاء المحيط به ، المكان جرت عليه الشمولية ، ومن خلال هذا أصبح تأثيرياً ، ومن هنا تظهر الإيقاعية التأثيرية لضوء القمر)[١٥] .

إنَّ هذه الإيقاعية التأثيرية لضوء القمر، كما يصطلح كوين – تتجسّد عند معظم الشعراء في العالم في مرحلتهم الرومانسية ، وقد نجد مثل ذلك عند الشاعر العربي بدر شاكر السيّاب في رحلة ما بعد الرومانسية وفي أشهر قصائدهِ (أنشودة المطر) :

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعة السحرْ
أو شرفتان راحَ ينأى عنهما القمرْ[١٦]

وفي تباعد القمر ، يتحقق في الضوء الخافت ما وراء كل موضوع من الأشجار والبيوت أن تتماهى كما لو ان الأشياء تمتد في بعضها البعض ، وكثافة الضوء شديد الضعف لا تستطيع ان تظهر معها الفروق القوية بين السطوح . (١٧)

من هنا تظهر جمالية البيوت والشرفات البصرية التراثية المصنوعة من الخشب الهندسي الأشكال وتظهر مثل هذه الإيقاعية التأثيرية لضوء القمر في شعر (فيرلين) وفي قوله :

" الضوء الهادئ للقمر الحزين الجميل
يجعل العصافير تحلم فوق الشجر
ويخرج زفرة الوجد في قفزات الماء
القفزات الكبرى الرشيقة
للماء بين الرخام (١٨)

والرؤية الظاهراتية لضوء القمر في إيقاعها التأثيري تلتقي مع ما يقوله العلم الحديث كما في كون "القمر يتمتع بخاصية الانعكاس لضوء الشمس ، ويبدو وجه القمر ليس ساطعاً بالدرجة التي يبدو فيها ، ولكنه يلمع في الفضاء لانه يعكس نسبة من الضوء الساقط عليه ، في حين أن كل ما حوله مظلم ونورانية القمر أعلى بالنسبة للضوء الأحمر ، ولهذا السبب يبدو سطحه احياناً بلون محمر ..وتعطي نورانية القمر فكرة عن مدى تغير الصخور النارية من مكان لاخر . ويمكن القول ان مدى تغير نورانية القمر من ٧% إلى ٢٣% هو مدى ضعيف نسبياً(١٩) ، ولقد سبق العلم الحديث والظاهراتيين في تفسير الخصائص الجمالية لضوء القمر فلاسفة من أمثال إخوان الصفا ، فبدا ضوء القمر عندهم ليس بنور ذاتي ، ولكن نوره (صورة روحانية ، ومن خاصية الصور الروحانية ان تسري في الأجساد النيرة ، وبين الأجسام المشفة)(٢٠)

ثانيا : جمالية استدارة القمر

ثمة ظواهر وأشياء ، ذات نزوع شعري ، ومنها (القمر) موضوع بحثنا ، هذا الموضوع الذي لم ينضب معينه عند شعراء جميع العصور ، وجميع الأمم ، لأنه يمتاز بخاصية جوهرية إذ يعد القمر شاعري بوصفه ملك الليالي ، أو بوصفه ذلك المنجل الذهبي .

وتظهر أبرز خاصية جوهرية في جمالية القمر ممثلة في استدارته فيما يسميه العرب بالليالي البيض ، أو الليالي المقمرة ، عند اكتمال هذا القمر في الليالي الحالكة السواد ، أو الصافية الزرقة .

إن الأشكال الهندسية في طبيعتها الجوفاء ، ليس ذات معنى ، فإذا حولناها إلى دلالات (رامزة) ، لاسيما عندما نكسب هذه الأشكال مشاعر إنسانية ، أو عندما تتحقق وجود الشاعرية في داخلها ، حينئذ يمكننا النفاذ إلى أعماق النفس منطلقين من عمق الكون المتشكل هندسياً إلى أعماق الذات الإنسانية وبالعكس فالمثلث المتساوي الساقين ، أو المتساوي الأضلاع ، كذلك المربع الكامل ، ومتوازي الأضلاع كلها ، أشكال هندسية يمكن ملاحظتها في الطبيعة ، ويمكن أن يصنع المهندس على وفقها أشكالاً معمارية جميلة ، ولكنها إذا ما امتزجت بفكر الإنسان ومشاعره ، فنجدها ترمز إلى محددات قارة كأنها سجن لحرية الفكر ، والعقل ، والعواطف ، فأنت تعتقل الذات في مربع كامل صغر حجمه أم كبر ، وتعتقل الأحاسيس الإنسانية في متوازي أضلاع أو مثلث ، أما الدائرة فان دائرة عالم الهندسة – كما يقول باشلار – هي دائرة فارغة ، فارغة جوهرياً ، لهذا فهي لا تصلح ان تكون رمزاً جيداً لدراستنا الظاهراتية للاستدارة) (٢١) .

يبدو اننا ننظر إلى ظاهرة الاستدارة بمنظورها للوجود الذي حفزنا إليها فلاسفة الميثافيزيقا والشعراء ، فنجد منظاراً اخراً بدلالات جمالية ، وماهوية عميقة ومتجذرة في تأملاتها، ولعل الخبرات الشخصيّة للإنسان ولاسيما علاقتها بالتذكر الطفولي قد تشكل اختلافات نوعية .

إن واحدة من دلالات الاستدارة تتمثل بالحريّة المطلقة في التعبير عن أعماق النفس ، فالتاريخ مدوّر عبر فكرة العود الأبدي ، والطواف حول الكعبة ، أو مراقد الأولياء ، وربط البدايات بالنهايات ، ونظام التدوير الشعري ، بل أكثر من ذلك ان باشلار يصل إلى الصرخة المدورة ، اذ (ان الصرخة المدورة للوجود المدور يجعل السماء مدورة مثل القبة ، وفي هذا المشهد الطبيعي المدور يبدو كل شيء في حالة الطمأنينة ، الوجود المستدير – كما يقول باشلار- ينشر استدارته ، وينشر معها هدوء كل استدارة)[٢٢] ، ولكنّ المتخيّل والمتصوّر غير ما هو واقعي أو مرتبط بالخبرات الإنسانية .

فهل حقاً (إنَّ كل ما هو مدوّر يثير فينا رغبة في أن نربتُ عليه ونلاطفه)[٢٣] كما يرى باشلار؟ وهل ان فكرة الاستدارة يمكن أن نجدها في عالم العواطف ، والمشاعر الإنسانية وفي عالم الحلم ، والذكريات ؟ ألم تشكل الاستدارة فكرة الزمن بين تذكر الحي واليوتربيا (أو عالم المستحيل) أو بين زمني التذكر والنبوءة .

إن فكرة الاستدارة توحي بكل ذلك ضمن تأسيس فلسفة الخيال الكوني ، باحثة عن مراكز قرار كونية في الخيال ، أو التأمل الجاد ، بيد أنّ الاستدارة لا تعني دائماً الجانب الهادئ المريح للذات ، فقد توحي بالحريّة المنفلتة حيث الدوران حول نقطة تشقي النفس مثلما هي في استدارة الرؤى ، و شقاء النفس في ليل أمرؤ القيس الذي لا ينقضي حيث الزمن النفسي المتطاول :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدولهِ
عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فالاستدارة فيها من التيه والعبث واللاجدوى ، والتكور حول محور واحد ، وقد تتسع الاستدارة فتتحول استدارة القطرة في البحر إلى دوائر متداخلة لا حصر لها ، ثم تأخذ بالتلاشي ، مثلما هي الأفكار التي تولد أفكاراً لا ضابط لها ثم سرعان ما تنهار باصطدامها بأفكارٍ أخرى ، تقطعها فتتلاشى هي الأخرى ،

ان علاقة استدارة القمر واحدة من خصائص علاقة الشعراء (أصحاب المخيلة الخلاقة) بالظواهر الكونية ، إذ تتحقق للفنان الشاعر حرية التعبير والتصوير للوحة الشعريّة ، اذ يرى استبصار الشاعر ان (العالم مدور حول الوجود المدور) [٢٤] وتظهر استدارة القمر عند اكتماله خصائص جمالية وحلمية ذات طبيعة شعريّة ، أما الصور الأخرى كلها ، سواء كانت ناتجة عن الشكل ، أو اللون ، أو الحركة فهي تعاني من النسبية في مواجهة ما يمكن أن نسميه العصفور المطلق ، وجود الحياة المدورة. [٢٥]

ومن هنا ينطلق الفنانون الشعراء كل من موقع زمانه ومكانه وعمق مخيلته ، وخصب مشاعره ، ورؤيته للعالم والوجود ، ويرسم تأملاته ويصور سوانحه ، منطلقاً من إيحاءات القمر على الكون والطبيعة والذات البشرية ، فقد أكّد الفلاسفة ان " كل وجود يبدو في ذاته مدوراً"[٢٦] كما يقول كارل باسبرز .

فاستدارة الكائن ، أو الوجود الذي يتحدث عنه باسبرز . لا تستطيع الظهور في حقيقتها المباشرة إلا من خلال اصغر نوع من التأمل الظاهراتي .

عندما تتأمل إيحاءات خاصية الاستدارة عند اكتمال القمر ، واجتذاب الشاعر إليها ينبغي أن لا نفكر بأن الشاعر ذهب إليها بخاصته البصرية ، وإنما ايضاً بتأثير جذب القمر على النفس الشاعرة ، وتوجد مخيلته بهذه الاستدارة ذات الأبعاد الهندسية الشعورية ، والمكبوته للإنسان الشاعر ، والإنسان غير الشاعر لكون الشاعر هو الرائي وهو الراوي لمشاعر البشر ، ولكون النقاد الظاهراتيون قد شاركوا رؤى الشعراء الرومانسيين والواقعيين والرمزيين في تعميق فلسفة هذه الرؤى الجمالية .

يقول باشلار في جماليات المكان : " عندما نقول "الوجود مدور" اننا نعني الوجود الكلي باستدارته وإذا أردنا أن تصبح معادلة "الوجود مدور" ينبغي التعرف على بدائية صور معينة من الوجود ان صور الاستدارة الكاملة تساعدنا على التمسك ، وتسمح لنا أن نضفي دستوراً مبدئياً على ذواتنا ، وان نؤكد

وجودنا بحميمية ، في الداخل ، لان الوجود حين تعاش تجربته من الداخل ، ويصبح خالياً من كل الملامح الخارجية ، أن يكون مدوراً.(٢٧)

فالتجربة الداخلية للذات الإنسانية تستدير بين التذكر والتوقع وتتجأوب في مشاعر الوجود كل من الحجر والشجر والبشر ، وكما يقول المتصوف الكبير صدر الدين الشيرازي : إن هناك ما يمكن أن نطلق عليه شوق الكائنات ، فالورد يشتاق إلى البشر ، والبشر يشتاق إلى الورد ، والبحر يشتاق إلى الشجر وكذلك البشر ، وكل الكائنات يتملكها الشوق إلى الله خالقها ، فالطاقة الخلاقة للفنان هي البصيرة بالقلب البشري وبقوى الطبيعة وتبديات جمالها .

ومن هنا وجدنا الفنان الشاعر يضفي جمالية ضوء القمر واستدارته على من احب من الفتيات وكان قد منح هذا الامتياز في إستدارة القمر، ولمعانه الفضي ، فالبسهما وجه حبيبته فشبهها بالقمر.

ان الشعر العربي بعامة والجاهلي منه بخاصة كان شعراً ريادياً ، قائماً على الفطرة النقية ، وعلى منابع الحدس الأصيلة ، فالشعراء لا يقلدون في تشبيهاتهم للقمر إلا بعد زمن الفطرة (أي في العصور المتقدمة) والشاعر وحداني ، مغترب ، وهذا التغرّب والوحدة يجعلانه يتأمل الكون الفسيح ، المدور الذي تمثل السماء فيه قبة مدورة وعظيمة ، مثلما انشغل بظواهر الطبيعة الأخرى ، وقد أصبح القمر واحداً من ابرز من يؤانسه ، ولكن ظاهرة التقليد كما اشرنا شاعت فيما بعد الشعر الجاهلي ، فقد نقد الشاعر العباسي مثلاً خاصية النظر المباشر للقمر ، فحصل بالبلاغة اسلوباً جديداً ، اطلق عليه بـ (التشبيه المقلوب) فتشبيه الشاعر العباسي القمر بوجه الفتاة الحبيبة وليس العكس ، وذلك ان الشاعر العباسي تحضر ، ولم يعد يرى القمر الحقيقي إلا قليلاً ، لان الفضاء لم ينفتح أمامه كما انفتح فسيحاً أمام الشاعر الجاهلي ، بل ان الشاعر العباسي أغلق على نفسه داخل القصور ، فصار حاجباً بينه وبين الطبقة الحية .

واستمر التقليد بأنواعه التشبيهية والاستعارية وأساليب الكناية ، ولم يتحوّل عن ثوابته حتى مجيء التحديث في العصر الحديث ، وتحوّل الشعر من تجسيد إلى تشخيص أو ترميز ، وتحوّل الشعر الإنساني بعامة إلى شعر رؤيا وليس إلى نظم قائمة على التشبيهات فشعر الرؤيا اتخذ من خاصية استدارة القمر معنى جمالياً ورمزياً خالصاً ، يُستقرأ من خلال رؤيا التاريخ والمشاعر وتحولات الوجود ، الداخلي للإنسان والكون والطبيعة .

(٢)
القمر الشعري والطفولة

تحدثنا الحقائق العلمية عن حدوث " خسوف القمر حينما تقع الأرض بين الشمس والقمر ، ويدخل هذا الأخير في منطقة ظل الأرض ، ولا يختفي القمر تماماً خلال مثل ذلك الخسوف لان غلافنا الجوي يسبب إنحناءٍ قليلٍ من الضوء حول الأرض بحيث ان الظل الذي يقع على القمر لا يكون مظلماً تماماً ، أو حالك السواد(٢٨) .

إن خسوف القمر هذا يعد من الظواهر الطبيعية الكونية التي شدّت إنتباه الإنسان منذ قديم الزمان وأثارتْ حيرته ، فكانت تثير في نفسه الرهبة والفزع وما زالت هذه الظاهرة تثير الفزع بين بعض القبائل الإفريقية ، كذلك فأن سكان الشرق الأوسط ومنذ الحضارات البابلية والفرعونية كانوا يرسمون خيالات أسطورية باذخة في تعليل سر ابتلاع القمر جزئياً أو كلياً متصورين وجود احد هناك في اعالي السماء بحراً يطلق عليه بحر القدرة ، وفيه حوت عظيم يقوم بمحاولة ابتلاع هذا القمر ، ولما كان قمر الليالي يشكل عند المتوحدين ، والرعاة ، والمسومين ببساطة العيش البدائي منار هداية للسير في الليالي ، أو للسهر والسمر فأنهم لا يرغبون بتركه في فم الحوت ، حينئذ يقومون بإطلاق الصراخ والعويل في الشوارع والأزقة والصحارى والجبال لينغصوا على الحوت من اجل ان ينفث قمرهم المنير من فمه الشره ، ولكون العقل الأسطوري البدائي يتلقف غرائبيات الظواهر . محاولاً تعليلها تعليلاً اسطورياً فان

هذا العقل يقدم لنا تجسيداته التأملية ، ورؤاه الحدسية التي كثيراً ما تبنى على متون حكائية ، واغاني طفولة ، لأنها ترتبط بعذرية الرؤى ، وطفولة الشعر وتخيلات العقل الأول ومغامراته ، وهنا تلعب ميثولوجيا الأمم والشعوب دورها في رسم معالم شعريّة النص ، ففي قصيدة "الحوت والقمر" للشاعر عبد الجبار العتابي ، نقرأ هذا النص الطفلي :

" يُحكى بأنَّ صوتْ
من حجر ..من حوتْ
أراد أن يلتهم القمر
لكنما القمر
قد إختفى لفترةٍ
وبعدَها ظهرْ
من كبدِ السماءْ
ليبصرَ الضياءْ
ليلاً على البيوتْ
حيثُ تدورُ قصةٌ
عن قمرٍ وحوتْ
من حجرٍ منحوتْ
أراد أن يلتهمَ القمرْ " (٢٩)

ان الحكايات الشعبية تتحول إلى كلمات شعريّة مغناة لدى الأطفال ينشدونها ، ويتغنون بها ، مثلما ينشدون على وقع المطر كلمات السيّاب : مطر ..مطر ..مطر لان هنالك إيقاعاً طفولياً أصيلاً يجمع بين الغرابة الكونية والطبيعة للظواهر وبين عوالم الدهشة عند الأطفال ، يقول باشلار : "كل ما هو منفتح على الطفولة له قوة الأصالة ..وله قوة حس الدهشة الذي يكتشف به الطفل الحقائق لأول مرة ، ولهذا فكل صورة لها خصيصة البدائية تمثل مغزى ما)[٣٠].

لقد أعاد الرومانسيون إكتشاف الإنسان لشاعرية الكون ، ومن ثم أعادوا التفكير في إكتشاف واحدة من ابرز ظواهر شاعرية الكون ، وهي شاعرية القمر التي تنبعث من خاصية الضوء فيه ، بيد ان دور المحاق الذي يذهب ضوء القمر والخسوف الذي يعدم هذا الإشراق أصبحا عند الشعراء نذير شؤم لان النور وجود رومانسي يعكس عالم الحلم المتبدي من العقل الشعري ، ولاشك ان (الوعي الحلمي كالوعي الشعري هو وعي شمولي ..وانه داخل الخيال الرومانسي يجد الشعر والحلم توحدهما)[٣١]

لذا نجد ان نازك الملائكة تلك الشاعرة الرومانسية الخصبة الرؤى تعلقت بـ (شجرة القمر) وكانت فزعة على قمر الليالي الذي غاب عن وجود الكون والطبيعة والإنسان ، باحثة عنه هي وكل عشاقه من كائنات الطبيعة بشراً وشجراً وحجراً ونهراً مندفعة بالهام طفولي بحثاً عن كنز الضوء المسروق ، في شعريّة هادئة وجلة حتى لنشعر معها ان الشعر كما يقول (غوته) (حالة محفوظة من الطفولة ، وهي ميزة لم تقدمها الطبيعة لكل العالم ، فقط الشاعر عرف كيف يحفظ في ذاته شيئاً من روحه الطفولية ، والحياة النفسية الطفولية هي نوع من التزويد العاطفي)[٣٢] .

ومن عوالم الطفولة تنطلق الشاعرة نازك الملائكة في قصيدتها "شجرة القمر" في حكاية طفلية تحكي قصة الغلام الذي كان يحب الطبيعة حباً يفوق حياة الآخرين لها ، ويريد ان يقترب منها ويذوب فيها ليصوغ منها الحانة وقصائده ، ولذلك نرى الغلام يحلم بأن (يصطاد) القمر ويأخذه إلى كوخه ، حتى إذا فعل ذلك كما تمنى ، وتخيل انه حقق سعادته ، اكتشف ان الدنيا كلها تحب القمر وتريده[٣٣] ، وليس هو وحده والقصيدة في أصلها حكاية قدمتها الشاعرة لابنة عمتها (ميسون) ذات السنوات الثماني لما وجدته فيها من ولع طفولي بالحكايات الغرائبية ، وشوق لإنشاد الشعر ، فجسدت هذه الحكاية الطفلية لما

فيها من إثارة الدهشة في علاقة الطفل بالقمر وصورة حالة الطبيعة في شمال العراق الحبيب لتصل إلى موضع الحكاية يقول مطلع القصيدة:

على قمة من جبال الشمال كساها الصنوبر
وغلفها أفق مخملي وجو معنبر

إلى أن تصل إلى ذلك الغلام الغريب الرؤى ، الحالم بالطبيعة وبامتلاكه القمر :

هنالك كان يعيش غلام بعيد الخيال
إذا جاع يأكل ضوء النجوم ولون الجبال (٣٤)

وانه يشرب من المطر بدل الماء ، ويأكل من ضوء النجوم غذاءً ، ويملأ فكره بالخيال المجنح من بالذكريات ، وانه يطارد الفراشات ، ويسمع صدى الأغنيات ، انه غلام غرائبي الطباع حقاً ، بين ان من اخطر أحلامه الغرائبية رغبته الجامحة باصطياد القمر وإيداعه في قفص من شذى وورد بعيداً عن أعين الرقباء :

وكانت خلاصة أحلامه ان يعيد القمر
ويودعه قفصاً من ندى وشذى وزهر
وكان يقضي المساء يحوك الشباك ويحلم
يوسده عشب بارد عند نبع مغمغم (٣٥)

إنَّ خيال هذا الغلام العجيب الرؤى أوصله إلى أبعد منأى من أجل اصطياد القمر من سمائه وان ينزله من عليائه :

وفي ذات صيف تسلل هذه الغلام مساءْ
خفيف الخطى ، عاري القدمين ، مشوق الدماءْ
راح يعد الثواني بقلب يدقُّ يدقْ
وينتظر القمر العذب والليل نشوانَ طلقْ

هذا الانتظار المتصابي يصل به إلى لحظة الحسم في اصطياد القمر إذ يهبط القمر من عليائه السماوي ويصير قريباً من الغلام الذي ارتقى قمة الجبل بخفاء شديد عن أعين الرقباء ، وحينئذ يتحقق الحلم ويمسك القمر :

وفي لحظةٍ رفع الشرق أستارهُ المتعمهْ
ولاح الجبينُ اللجيني والفتنةُ المُلهمهْ
وكان قريباً ولم يرَ صيادنا الباسما
على التل فانساب يذرع افق الدجى حالما

وبعد أن امسك الغلام الحالم بكنزه الفضيّ ، ذلك القمر الجميل عاد به وأخفاه في كوخه ، حيث حقق حلماً صعب المبتغى :

وأخفاه في كوخه لا يمسك إليه النظر
إذلكَ حلمٌ ؟ وكيف وقد صاد ..صاد القمر(٣٦)

لكن القمر لم يكن معشوقاً عند الغلام فحسب ، بل انه اكتشف ان الدنيا كلها تحب القمر وتريده ، كما تقول الشاعرة ذاتها(٣٧) ، فالدنيا لا تسمح لأحد أن يمتلكه ويحتكره . وهنا تأتي ثورة الرعاة والصيادين طالبين استرجاع الأسير لان القمر رمز للحق العام كما ترى الشاعرة (٣٨)

ولكون ثورة الرعاة والطبيعة والكائنات كلها طالبت بإطلاق سراح الأسير الجميل ذلك القمر الذي أضاء كل دروب الوجود ، ونفذ نوره في كل الموجودات ، فما عسى الغلام ان يفعل ، حيث نداء الإنسان والطبيعة لا يتوقف في بحثه عن سر اختفاء القمر :

وفي القرية الجبلية ، في حلقات السمر
وفي كل حقل ، تنادى المنادون : "اين القمر"

وكذلك :

نادت صبايا الجبال جميعاً " نريد القمر!"
فرددت القمم السامقات : " نريد القمر"

وحتى السنابل والورد تطالب بالبحث عن القمر لأنه صديق الطبيعة وسميرها .

ان الغلام في هذه الحكاية الشعريّة يصغي لهذه النداءات التي لا تدرك مكان اختفاء القمر ، حتى تردد على سمعه وفي تصورات خياله أن السكون والمساء والكون وموجودات الطبيعة تطالبه بإظهار القمر:

وهز السكون وصاح " "لماذا سرقت القمر؟"
نحن المساء ونادى : "وأين خبأت القمر!"[٣٩]

هذه المطالبة الملحّة جعلت الغلام في حَيرة من أمره ، ولم يصدق إنه اكتنز بالقمر في كوخه ، وانه ليبكيه بعيون حرّى ، وبلهفة عاشقة ، وأمام صراخ الجماهير من بشر وشجر وحجر وكائنات طبيعية وقف الغلام مشدوهاً وهو يحاول أن يخفي القمر :

وجاء بفأسٍ وراحَ يشقُّ الثرى في ضجرْ
ليدفنَ هذا الأسير الجميل ، وأين المفرْ ؟[٤٠]

ان الغلام استرقته فكرة حالمة أخرى وهي أن (يدفن القمر في الأرض ليستنبت منه شجرة سامقة لا مثيل لها بين الشجر ، لان ثمرها المتدلي من أغصانها ليس الا أقماراً فضية متألقة[٤١]، ومر زمن من الأحلام :

ومرت عصور وما عاد أهل القرى يذكرون
حياة الغلام الغريب الرؤى العبقري الجنون
***
وحتى الجبال طوت سره وتناست خطأه
وأقماره وأناشيده واندفاع مناه
وكيف أعاد لأهل القرى الوالهين القمر
وأطلقه في السماء كما كان دون مقر[٤٢]

لاشك أنَّ الحكاية تتضمن مغزى ، وإدهاشاً لعالم الطفولة في ارتباط الطفولة بعشق القمر و (أنَّ معيار الفن – في هذه القصيدة- هو قوته في أن يحضر للتأمل ، وان يكشف عن الوجدان ، الذي يمكن ان نتحقق من انه حقيقي)[٤٣] على حد قول الفيلسوفة الأمريكية سوزان-لانجر. فالقمر ملك الجميع واليد التي تريد إمتلاك القمر تُعد سارقه لأنه ملك مباح للجميع ، فجمال القمر وبهائه ثروة وجودية للكون والطبيعة والإنسان ، وإذا تعمقنا في شعريّة القمر من خلال هذه الحكاية الرائدة نجدها تحمل معنى لروح طفولية ، ومغزىً دلالياً للفن الخالص لذلك الشاعر العاشق لتلكم الطبيعة الإلهية ، إذ تحمل هذه الحكاية الشعريّة معنى مغزوياً أبعد من المستوى الظاهر لحكاية طفولية تثير دهشة الطفل وحبهِ للغرائبية في الحكايات كحب الطفل للقمر . وقد قدّمتها الشاعرة بلغة بسيطة واضحة الصور ، غنائية الإنشاد ، في مقطّعات عذبة تحاكي لغة الطفل وقدرته على الاستيعاب والإنشاد ، أما المعنى التي تنشده الحكاية ومثلما تقدم الشاعرة ذاتها في مقدّمة شجرة القمر أنها تظهر بُعداً رمزياً لذلك الفنان الإنسان الذي رمزت لهُ بالغلام غريب الرؤى ، ذلك الفنان في تناوله لشعريّة الكون وشعريّة القمر الذي أبدعه .

انه فنان خلاّق صاغ من مخيلته قمراً هو حق الوجود كلّه ، ومنه صاغ الفنان الشاعر قصائده وصورها المدهشة ، وأنَّ هذا الفنان أعاد القمر إلى الوجود بعد أن جسّده في لوحته الشعريّة من خلال استنباته شجرة من أقمار شعريّة .. ومن هنا يصوغ الشاعر بروحه الطفولية العذبة شجرة أقمار، بيد أنها من كلمات ، كلمات فنان يجسّد الجمال والطفولة وجوداً شعرياً .

إنَّ الطفولة بالنسبة للشعر هي غذاء الروح ، أما (الغنائية الشعريّة فيه فتنشد الانسجام الكوني ، وتثير جمال موسيقى الوجود بعاطفة منغمة بالشجون والحنان)[٤٤]

(٣)
القمر الشعري والمشاعر الإنسانية

تُعد ظاهرة التشخيص ، وإضفاء المشاعر الإنسانية على القمر عندَ الشعراء من أبرز تجليّات شعريّة القمر ، فقد ظهر جليّاً أنَّ القمر في قصيدة نازك الملائكة كان معشوقا من الغلام الحالم في إصطياده والاحتفاظ به بعيداً عن أعين الرقباء الذين يعشقونه ايضاً ، وقد تجلّى في قصائد شعراء آخرين بأنه العاشق المتيم ، الذي يتحسّس مواطن الجمال الأنثوي ، ويدهش بالسحر مثلما فعل الشاعر على محمود طه في قصيدته التي أطلق عليها اسم (القمر العاشق) ، ذلك القمر المؤنس من خلال ما طبعة الشاعر من نفسه ، وأغدقه على القمر من أحاسيس إنسانية ومشاعر بشرية ، فقد إبتدأ على محمود طه القصيدة بصور توصيفية في لوحة شعريّة نشهد فيها قمراً يطوف على شرفة الحبيبة النائمة في مخدعها ، وهي حالمة ، وان مظاهر جمالها يعرفنا بأنها سحرت القمر ، فهو مضنى يطوف بشرفتها ، ويرف عليها ، وان ضوء القمر هذا يسقط على نفسها سقوط الحلم ، وما يحمله هذا الحلم من غموض المعاني والإيحاء التي هي مظهر الفكر والمشاعر الروحية كما تصفها الناقدة الشاعرة نازك الملائكة[٤٥] ثم يرسم لنا صورة الفتاة المعشوقة من القمر ، وهي نائمة على فراش طاهر كما تتنفس الزنبقة البيضاء الإيحاء بالنقاء الروحي والطهر الصافي والظريف ان هذا المشهد الرائق يحقق للعاشق المسهّد ضنى وشحوباً ، هو لون القمر ليلة اكتماله ، أما الراوية ، فهو عاشقها البشري الشاعر الذي يطالبها بإخفاء فتنتها عن القمر العاشق :

إذا ما طاف بالشرف ضوء القمر المضنى
ورف عليك مثل الحلم أو اشراقة المعنى
وأنت على فراش الطهر كالزنبقة .. الوسنى
فضمي جسمك العاري وصوني ذلك الحسنا[٤٦]

ان الصور التشكيلية التي جسدها الشاعر علي محمود طه في المقطع الأول ترينا حرص الشاعر على الحبيبة وغيرته من ان يراها القمر ، أو يمسها بضوئه لخطورة ضوئه وقدرته الساحرة على التلاعب بمشاعر الحبيبة ، وهنا تتجسد الأعماق الرومانسية للشاعر من خلال الشفافية والخوف على الحبيبية ، حتى النسيم والضوء حينئذ يعلن انه يغار على حبيبته من نزعات القمر ، ولا سيما نزعاته الحسية

أغارُ عليك من سابٍ كأنَّ لضوئه لحنا
تدقُّ لهُ قلوبُ الحو ر أشواقا اذا غنّى
رقيقُ اللمس عربيد بكلِّ مليحة يعنى
جريءٌ إن دعاهُ الشو قَ أن يقتحم الحصنا

ولكي يظهر الشاعر لغة تنفرد بحبه ، ولا تستأثر بجمال القمر وقدراته الاغرائية ، فانه ينقل لنا مشاعر الحبيبة عندما رأت ضوء القمر قد أضفى على شرفتها فأوصدت نافذة الشرفة تاركة القمر ، وقد عصت هواه فأصبح ثائرا ثورة عارمة ، كمن أصابه الجنون ، حاقدا على الليل ، عائدا إلى عليائه بعد ان انزله جمالها إلى عالمها الأرضي ، وذلك كون القمر الذي يشبه طفلا كان يحلم بالدفء الأنثوي وعاد إلى الكون جبارا يتربع على عرش الليالي .المقمرة :

عصيتِ هواهُ فاستضرى كأنَّ بصدره جُنا
مضى بالنظرة الرعنا ء يطوي السهل والحزنا
يثير الليل احقادا وصدر سحابه ضغنا

وعاد الطفل جبــارا يهز صراخـهُ الكونــا

اظهر لنا الشاعر عبر لوحاته الشعريّة مواصفات لقمر عاشق والفتاة المعشوقة ، وان الفتى السماوي ، أو العاشق السماوي ينافسه عشقه للحبيبة ، كما أظهرت القصيدة ان العاشق السماوي لا يرتبط ارتباطا مقدسا بمعشوقته الأرضية ، فهو لاه عابث بسحره الجمال الحسي فحسب فيستجيب لدواعي العاطفة الغريزية ، في حين يراد لفتاته ذات الغلالة الرقيقة المطهرة ، بيضاء الروح ان ترتبط بمن هو مفتون بسحرها الروحي الذي هو من مكتنزات الحب الرومانسي ، وأخيراً فانه يريد القول ان المعشوقة لا تحلم إلا بفارس أحلامها ، وهذا الشاعر الإنسي ، الصادق بحبه المتفرد بتقديس هذا الحب وصيانته إنما يغار على معشوقته .

لقد استطاع على محمود طه ان يضفي مشاعر الإنسانية على القمر إذ جعله بشرا سويا ، يعشق ، ويدقق في عوالم الجمال الأنثوي ، وحين يحلم وينكسر الحلم عنده عندما لا تَعبأ بهِ المعشوقة . ان التشخيص الذي قدمه الشاعر الرومانسي ، الذي جعل القمر شخصا يمتلك القدرة البشرية على المكر ، والحب والحقد إنما هي واحدة من مكتشفات التصوير الظاهراتية للرومانسية المعاصرة وكثيرا ما تأخذ شعريّة القمر مداها ومظاهرها من أعماق الشاعر ، وكان عوالم القمر تنفذ في حواس الشاعر وأحاسيسه فتأخذ صورتها من الفرح والحزن وما أوصافه التي يجتليها الشعراء إلا أوصافاً لأحوالهم وطبائعهم النفسية ، يقول السيّاب :

والقمر المريض والدجى ...
اكتبها وصية لزوجتي المنتظرة
وطفلي الصارخ في رقاده ابي ، ابي .
تلم في حروفها من عمري المعذب[٤٧]

حقا ان المتفائل يرى العالم من ثقب إبرة والمتشائم يفتح حدقة عينيه فلا يرى إلا سوادا ، بعضه يتكدس فوق بعض ، وفي حالة السيّاب الرهيبة يرى الشاعر انه يرى كل شيء كظيم ، وغائم ومريض ، حتى هذا القمر الذي كان صورة لربيع العمر عاد مريضا ، ففي المقطع السابق في قصيدته الوصية التي بعثها إلى زوجته وهو في المستشفى ببيروت كانت تحمل صورة لرؤياه المريضة التي هي تجسيد لجسدهِ السقيم .

اذن فالقمر المريض هو جسده ، والقمر عند السيّاب صورة لطفولته الحالمة وذكرياته الجميلة ، حيث الطبيعة ساحرة لشاعر مرهف الحس كالسيّاب والقمر واحد من رموز الطبيعة الوديعة ، لذلك منح السيّاب ذلك القمر وجدان الإنسان في تعاطفه مع بني البشر في مواضع كثيرة ومنها قوله :

يدُ القمر النديّةِ بالشذا مرت على جرحي ،
يد القمرَ الندية مثل اعشاب الربيع لها إلى الصبح
خفوق فوق وجهي ، كف الاء !
وهمس حول جرحي ، كف طفلتي الكبيرة ، كف غيداء[٤٨]

فالقمر هنا معادل موضوعي لكف إبنتيهِ آلاء وغيداء ، والعلاقة بين القمر والكف ليست المشابهة باللون وإنما بالكرم والعطاء فطالما منح القمر معاني البهجة والسعادة التي هو الآن بأمس الحاجة إليها ، مثلما هو بأمس الحاجة إلى من يداوي جراحه ، لا سيما جراح الغربة والألم ، فالقمر رمزٌ من رموز الكرم الروحيّ عندَ السيّاب هنا ، وكثيرا ما نرى السيّاب يغدق على القمر صفات انسانية مبهجة ، مثل قوله :

" تنامين أنتِ الآن والليل مقمر
أغانيه انسام وراعيه مزهر"[٤٩]

وقوله :

" وكم عبر الخليج إليَّ والأنهار والترعا

يدغدغ بيضَ أشرعة يهيم وراءها القمر"[٥٠]

وقوله :

" وتنطفئ مدفأتي فأضرم اللهيب
واذكر العراق : ليت القمر الحبيب
يأتي من العراق يرتمي عليّ: آه ياقمر
أما رأيتَ وجهَ غيلان ؟ أنا الغريب" [٥١]

من هنا يسقط الشاعر روحه المعذبة وجسده المتعب على رفيق جرحة وصديق احلامه اللاهية ذلك القمر الكريم بجماله وضوئه إذ يشعل البهجة مصابيح في لوحات شعر الجريح .

عيناك حين تُبسمان
تورقُ الكرومْ
وترقصُ الأضواءُ
كالأقمار في نهرْ [٥٢]

انه سحر القمر الذي يتناغم معهُ كروح ملائكية ، تُهدئ من روعهِ وتودعه أسرار الجمال الطفولي الخلاق .

(٤)
القمر الشعري النجوى

قلنا أنَّ البدر ، ومنذ اتجاهات العقل البدائي الأول حوله أصبح شاهد العصور ، وضمير الزمن على التاريخ ، بل هو نجيُّ المتوحّدين ، وأنيس المسهّدين ، لذلك نجده في شعر شعراء الإنسانية شارك الإنسان فرحه وهمه ، وكثيرا ما يلازمه كظله . مثل هذه الصحبة والمشاركة نتلمسها في الكثير من قصائد نازك الملائكة، منها تصويرها لحبيبها المشغول في آذار حيث أخذته الطبيعة وإنشغل بعوالمها ، حينئذ جاءت الشاعرة لزيارة هذا الحبيب برفقة القمر :

" أنا والقمر المشتاق جئنا نطرقُ الشباكْ
عبرنا الصخرَ والأشواكْ
ووديااً من الآهات والأوصابْ
أتينا هاهنا لنراكْ
حبيبي ، فافتح الشباكْ " [٥٣]

إنَّ نازك الملائكة هنا لا تكلف نفسها جهد التصوير والتعبير ، بيد أنّها كانت ترسم صورة تقترب من المباشرة مع الإيحاء برمزية القمر الوديع المحب الذي يحمل كالإنسان مشاعر الإحساس بالفراق والرغبة العارمة في اللقاء ، ومثل هذه البساطة نتلمسها في شعر سعدي يوسف ، إذ (يشع سعدي بطور متميّز أخّاذ . إنَّ أحداً لم يستطع أن يجمع بين الصنعة والبساطة والمتانة والرقة والترابط ، والعذوبة وأن يعطي مثل هذه الأقوال المتناسقة الرائعة)[٥٤] مثلما يفعل سعدي يوسف، فهو يأخذنا في وحدته إلى معتقله في السيبة بينما يفعل القمر في إيحاءاته ما يفعل الحبيب المؤاسي وهو يجوب أرجاء المكان الموحش ، باعثاً للشاعر ببريق أمل ، ومفتاح نجاة من فضّتهِ الرائقة :

إحتفل الليلة بالقمر الزائر من خلف
القضبان ، لقد رقد الشرطي وانفاس
((السيبة)) مثقلة برطوبة شط العرب ،
التفت القمر الزائر ناحيتي ، كنت ادندن
في ركن الموقف .. ماذا تحمل لي في
عينيك ؟ هواء المسه ؟ وسلاما منها ؟

كان القمرُ الزائرُ يدخلُ من بينَ القضبانْ
يجلس في ركن الموقف مفترشا بطانيتي
السوداء تنأول كفي : محظوظ امن
وغادرني .. ابصرت بكفي مفتاحا من فضة[٥٥]

ان ثمة توصيف رائع لصورة القمر وهو يزور معتقل الشاعر ، وبالبساطة الآسرة إستطاع سعدي أن يصور الليلة الاحتفالية باكتمال القمر ، وانه أحد الشهود الذين لا يزوّرون حقائق ما تشهده المعتقلات ضد الوطنيين الشرفاء . ولم يترك المشهد من ملامح المعتقل شيئا إلا وأشار اليه بما في ذلك الشرطي الراقد بعد منتصف الليل ونسائم السيبة الحدودية ، ورطوبة شط العرب والتفاتة القمر صوب الشاعر المتوحد ثم يستطيب الحديث الصامت مع القمر كونه رسول محبّة ، ثم ان القمر منح الشاعر مفتاحاً فضياً اشارة لبشارة الحرية والانعتاق فالعالم هنا فضاء للشعر مثلما هو فضاء الشاعر، والشاعر هنا يصبح ملاذا للعالم ولصمت العالم انه يتكلم من خلال قصائدة وعبر قدراته على التشكيل والتعبير ، وربط وشائجه الصادقة والإنسانية من خلال شوقه للكائنات .

من هنا نستطيع القول ان مخيلة الشاعر ورؤاه هي قلبه ومشاعره وفلسفته ، وهي سفر مفتوح في الفضاءات الشاسعة حقاً ان الشعر بحاجة إلى سفر مغامرة ، وسفر حرية بامتياز ، ومن هنا تذوب مسافات العزلة والوحدة والاغتراب الإنساني للشاعر وتصبح عوالم الشاعر أليفة للآخر ، ومألوفة لذات الشاعر ، حيث شوق الكائنات يحقق مفهوم الوجود من خلال مشاعر النجوى .

(٥)
القمر الشعري وتشخيص الكائنات

من خلال استقراء النصوص الشعريّة تتأكد حقائق علمية خطيرة ، منها كون الكثير من الحيوانات الشرسة تزداد شراسة ليلة اكتمال القمر ، ولاسيما النمور والأسود والكلاب وسواها[٥٦].

في حين نرى ان الحيوانات الأليفة وذات الطرافة تستأنس باكتمال القمر وتستوحش بغيابه، كذلك يظهر الانشراح والمرح واللعب والتعابث لهذه الحيوانات في الليالي المقمرة ، وهذا ما يذهب اليه العقل الشعري في تصوير المشاعر واستعاراتها الوجدانية في الحالات الشعريّة وقت الكثافة الضوئية ففي قصيدة ايليا ابي ماضي (ليلة قمرية) تتجسد هذه الرؤى من خلال التصوير الذي ارتسم عند الشاعر عبر لوحات ست ، تبدا اللوحة الأولى باشراقة القمر على الطبيعة ومشاهدته ما يحدث في عالم الكائنات في تلك غابة ، فيكون البدر هنا شاهداً وراوياً ، يقول إيليا :

أشرف البدرُ على الغابةِ في إحدى الليالي
فرأى الثعلبَ يمشي خِلسةً بين الدوالي
كلّما لاح خيالٌ خافَ من ذاكَ الخيالِ
واقشعرا ![٥٧]

فاللوحة تحقق مشهدا مألوفاً يشرف من خلاله البدر الكامل على طبيعة الغابة وينقل لنا مشاهده، وأولى هذه المشاهد رؤيته للثعلب وتصويره لحركته القلقة وتخفيه بين أحراش الغابة ، ووجله مما يلوح من ضوء القمر المتخلل لأشجار الغابة أو رأى خيال عابر وحتى انه ليصيبه الخوف لدرجة أصابته بالقشعريّة .

ان حالة القلق والفزع من المجهول هي الحالة النفسية التي يعانيها كائن ماكر في النهار مثل ((الثعلب)) بيد انه جبان ، وخائر القوى قلق الذهن في الليل عند اكتمال القمر ، أما اللوحة الثانية فيتجلى فيها مشهد الأسد في قول الشاعر :

ورأى ليثا هصورا واقفا عند الغدير
كلما استشعر حسا ملا الوادي زئير

فإذا بالماء يجري خائفا عند الصخور
مكفهرا ![٥٨]

فاللوحة تقرانا مشهد الحذر الشديد عند الأسد في الليلة القمرية ، فهو واقف بصمود يشوبه الحذر ، وكان فارس الليل المؤتمن على الغابة ، فإذا شعر بأدنى صوت ، أو خطر صرخ بصوته ، واظهر هياجه وانفعاله حتى كان الماء تسارع خائفاً من وطأة صوته ، وجولته ، واظهر الراوي (القمر) الحالة النفسية للأسد بالغضب المتمثل بالاكفهرار ، وإن استئساده هذا حدث في ليلة قمرية كما يشير عنوان القصيدة .

أما (ابن أوى) فقد شهدناه في لوحة يظهر المرح والاستئناس ، يصول ويجول متمنياً أن يصبح البدر أو رفيق البدر ، وقد حفّتْ به نجوم السماء كجنود وفتيات حِسان ، هكذا يروي القمر في اللوحة الثالثة :

ورأى البدر ابن أوى يتهاوى في الفضاءْ
كمليكٍ حولهُ جنودُ وإماءْ
قال: لو كنت رفيق البدر ، أو بدر السماء
أو خياله".[٥٩]

إنَّ قصيدة (ليلة قمرية) دون شك في ذلك قصيدة طفلية صاغها الشاعر على وفق تصوّرات الأطفال ، ورؤاهم ، وأخيلتهم المحبة لعالم الطبيعة وظواهرها من مساء وغاب وحيوانات وقمر ، وبلغه مبسطة ، قائمة على البنية الحكائية والمشاهد الممتعة ولكنه بأسلوب السهل الممتع ، فأنت ترقب في أعماق المخيلة المصورة لتجد رمزية باذخة ، ومعاني عميقة تتجلى في الإفصاح عن طبائع عالم الحيوان فالثعلب الماكر نهارا ، جبان متداع في ليلة اكتمال القمر والأسد حذر ثائر خشية مداهمة عرينه أو غابته وابن أوى لا يشغله شيء في الحياة ، لأنه مرح ، فيه من السفاهة ما يشبه سفاهة بعض البشر.

إن القصيدة تلغز وهي واقعية ، وترمز وهي إيحائية ، وتصور واقعية تضمر أعماق نفسية لعالم حيواني يشبه عالم النفس الإنسانية ، فحقق الشاعر ايليا ابو ماضي بحكايته وبساطة أدائه مبلغاً شعرياً راقياً من خلال بساطته الاسره التي تحاور عالم الحيوان وتؤنسنه (تجعله إنساناً سوياً) وقد يصدق مفهوم (ت.س.اليوت) في المعادل الموضوعي الذي يتحقق من خلال نقاط التقاء عالم الحيوان بعالم الإنسان عبر الظواهر الكونية فالكلب هو الآخر يزداد شراسة بزيادة ضوء القمر وقد فسر البعض ان القمر يجد في استدارة وجه القمر صورة رغيف الخبز فيظل ينبح بحثا عن هذا الرغيف الفضي ، أو انه يطارد وجه القمر ، وهو يحسبه فريسة تهرب منه فيطارده أملا بقنصه حتى يلهث ، أو يظل يعوى دون جدوى وهذا الأمر قد يحدث للإنسان الذي يبحث عن مصير أو مستقبل دون جدوى وكأنه يبحث عن سراب هو وجه القمر عند الكلاب .

يقول الشاعر الروسي (مايكوفسكي) في قصيدته (هكذا صرت كلباً)

إيه، إنَّ هذا ،لا يطاق.
إنَّ الحقد ليعضّني شبرا .. شبرا
إنّي لأحقدَ ليس كما لو إستطعتم أن تحقدوا
كما ينبح الكلب وجه القمر ذي الجبين العاري
وددتُ لو أخذتُ أعوي دونما انقطاع .[٦٠]

ثمة خطب الم بالشاعر ثور في ذاته أعماق جهنم الدنيا ، وصبها على من سببوا ارقه ونقمته ، حتى جاءنا بتصوير يمثل شراسة الحقد الذي يعضه كحيوان مفترس : شبرا .شبرا ، بيد انه الحقد الذي يحقق مأربا ، فالآخرون حين يحقدون يدمون الذات الإنسانية للشاعر ، لأنه يشكل حسّ الإنسانية ولكن حقد الشعراء لا يدمر إلا الشاعر نفسه ، فشعره فقط هو كلمات القلب المستعرة التي لا تحقق مأربا ، ولا تقتل نفسا عند ضعاف النفوس والجهلة لأنها تشبه نباح الكلاب بوجه القمر ، وثرثرة الشعر تتحوّل إلى

ما يشبه عواء الكلب الدائم إزاء التهام القمر، وان وهم الكلب ووهم الشاعر هكذا يتحقق المعادل الموضوعي للنفس المتعبة تجاه ظاهرة القمر ، إلا أن نباح الكلب واستشراسه بوجه القمر ذهبا مثلاً وراء أمال الشعراء المبددة يقول الشاعر العراقي يعقوب جواد في قصيدته (قمر للكلاب)

" واقف عند مفترق الطرق الراحله
تضج بسمعي خطى السائرين
وترمقني السابلة
حين مر بقلبي الغراب
تأبطت زوادتي والكتاب
وقلت دعوا لهفتي العاجله
تمسد شعر الرصيف
المُ لك إنْ هزَّ عودي الخريف
تدثرت بالفرحة الآجلة ؟!
أنا دمُ قلبي نزيف
وزنبقتي ذابلة
إلامَ أنا قمر للكلاب
تحدّقُ بي ثم تعوي
وتعوي بي الاسئلةْ ؟! (٦١)

فالشاعر يعاني صراعا إزاء الموت ، فالموت يكمن في أعماقه الدافئة والدافقة بالصبر والمتدثرة بأحاسيس الجمال فيعقوب هنا يقف عند مفترق الطرق ، بين عالم الأحياء والأموات ، تدوي في سمعه أحاديث الأحياء وترمقه نظراتهم الوجلة كمن يقول له : أنت ضيف الأحياء وأنت من مدينة الأموات، حتى الرمز الذي تجلى في لوحته الشعريّة وهو (الغراب) ، فهو من رموز الموت الذي صدح وحن في أشهر قصائد (إدجار الن بو الامريكي) وهو الذي شهد مقتل الإنسان الأول ابن ادم (قابيل) فالكلمات والنظرات والغراب كلها مفاتيح لعالم الموتى ضجت بسمع الشاعر وبصره وبصيرته .

ومن ثم في قلبه الشاعري حينئذ فقد أحسَّ ان متاعه في عالم خالد ربما عالم خلوده في كان ديوان شعره كما فعل السيّاب حين ناجى ديوانه قائلا :

ألك الكؤوس ولي ثمالتها
ولك الخلود وانني فاني

ان ازدحام الرؤى السوداء لم يقفل على الشاعر باب الفرح الإنساني ولم يقتل آخر عناوين التفاؤل وان كان تفاؤلاً مستحيلاً لقلب نازف ، وردة أطلق عليها ديوان شعره (الخريف التاسع والعشرون) ولذلك انداحت كل هذه الرؤى وضجت كل هذه التساؤلات المقيتة التي هي ابداً كانت تفكك عرى الفرح ، وتقطع الصلة بالوجود الواقعي ، حينئذ وجد في ذاته قمرا شعرياً وانسانياً للكلاب تنهشه من كل مكان بأصواتها ، بنظراتها ، برموز الموت اليومي بالذي يحمله من إحساس حقيقي بالموت (حيث اللوكيميا) التي تخدش الجسد والنفس معاً ، فكان ان بلغ النباح إزاء عالمه حدود العواء الذي لا ينقطع متصاحباً مع هذه الرؤى التي تفتات من فكره الشاعري وقد حققت دلالة القمر عبر القصيدة مديات رائعة من الإيحاء والدلالة الشعريّة .

أما الظاهرة الشعريّة المخالفة لاكتمال القمر فهي ظاهرة محاق القمر أو غيابه كلياً أو جزئياً، وهذه الظاهرة تشكل دلالات نفسية تصويرية لها معطياتها على عوالم الطبيعة والكون وكائناتها، وكذلك في تجسيداتها التصويرية عند الشعراء ففي قصيدة الشاعر عبد الرحيم صالح الرحيم الموسومة (عند محاق القمر) ثمة لوحات ذات أبعاد فلسفية الرؤى يتحسسها الشاعر فيرسمها لنا رسما تاملياً ، ففي اللوحة الأولى يقول :

" عند محاق القمر ...
يخرق الليل اثوابه ...
فضة
من غموض بعيد

فهناك أبواب الليل ديوان الشعر، والشاعر الرحيم يفتح واحدة من أبوابه ، حيث يخرق الليل قطعة في ملابسه السوداء فيظهر جسداً فضيا لكنه يتلألأ من بعيد مما يدل على أن المحاق جزئياً في هذه الأجواء الكونية ، ويُظهر الشاعر مشهداً لعالم الكائنات في أفعالها التي تبدو في غير الصورة التي رأينا في اكتمال القمر فالشجر لا ينام والعندليب لا ينام أي كلها خائفة من ظلام الليل حيث غياب القمر :

" عند محاق القمرْ ....
لا ينام الشجر
أو يهدا العندليب ...
خفقه من جناح بعيد " ...

كذلك نجد جوع الذئاب الليلية يتبدد ، والنمور تبدو هادئة عند اكتمال القمر ، وهذه ظاهرة لافتة للنظر من بين الحقائق العلمية للظواهر الكونية والطبيعية مع مماثلاتها في التجسيدات الشعريّة :

" عندَ مَحاق القمر....
يتبدد جوع الذئاب...
ويهدا نبض النمور ...
همسة ..
من سكون بعيد ". (٥٩)

والشعر لا يعلل تلكم الأسرار الإلهية ولكنَّ الشاعر يتأملها بإصغاء روح ، ويناغمها عبر عوالمهِ الشعريّة ، بيد أنّه يمكن كشفها لخالق سرّها ومدبر عوالمها :

" عند محاقِ القمر ...
يكشفُ الربُّ أسرارهُ ...
ومضةٌ ...
من متاهٍ بعيد . (٦٣)

والذي يقرأ في كتابات الأسرار الإلهية حول الظواهر الكونية والطبيعية في علاقة القمر وليالي محاقهِ مع عوالم الطبيعة سوف يجد أسراراً لن تنتهي ، وفي كل يوم يرصد العلماء منها ما يثير الدهشة لنر عظمة الخالق في غريب عظمة خلقه .(هامش) .

وقد التفت الشعراء في موروثنا العربي لظاهرة المحاق للقمر وجسدوا ذلك في تصوير حسي جميل مشبهين ذلك بغياب الحبيب ،يقول ابن المعتز :

يا صاح ان كنت لم تعلم ، فقد طرحت شرارة الحب في قلبي وأحشائي
أما ترى البدر قد قام المحاق به من بعد إشراق أنوار وأضواء
وقد عست شعرات في عوارضه تزري على عارضيه أي إزراء (٦٤)

لكنَّ الشعر كما ترى لا يخرج في توصيفه للمحاق إلى فلسفة تأملية ، كونيّة كما فعل الشعراء المعاصرون.

حقا ان مهمة الأدب ومنه الشعر هي خلق الجمال وان يثير فينا انفعالا خاصا والشاعر هو من (يجعل العالم إنسانيا من خلال الاندماج في الكون وأسراره) (٦٥)

والذي نلحظه من الدلالة الموحية لصور القمر كونه شاهد الطبيعة والإنسان والمشارك في كونه معادلا موضوعيا لاشراقة النفس الإنسانية وعظمتها وان انسنة عالم الحيوان ، أو ظواهر الطبيعية إنما تترسم خطى معادلة بين الحقائق الموضوعية والمعارف الشعريّة المصورة بلغة الإيحاء ، من اجل

تحويل أشياء ، الكون إلى عوالم شعريّة أطلقنا عليها (شعريّة الكون) و(ان الوظيفة الخاصة المسند للفن – فعلا- هي ان يعيد لنا الوعي بالأشياء التي أصبحت موضوعات اعتيادية في وعينا اليومي) على ما يرى المنظر الروسي شكلوفسكي [٦٦] .

وان عمليات ماهيات الشعر ودلالة الرمز الشعري (كالقمر) تعد غاية جمالية في ذاتها ، وللفن النقدي طرقه التجريبية و الفنية لاستكشاف عوالم النص التي هي بالضرورة تشكل رؤيا العالم جمالياً .

ومن هنا ايضاً نستطيع القول ان النقد (يسعى ان يكون وعياً للأدب الذي يحيا أكثر من أي وقت كان من نبضات الإنسانية نفسها) [٦٧]

وعلاقات القمر مع العالم كبيرة جداً إذ تظهر بعض المصادر علاقة اكتمال القمر بالكثير من الظاهر الكونية الطبيعية ومنها :

(ان لدغة العقرب ، ولسعة الثعبان تكون اشد سماً في النصف الأول من الشهر .... وكذلك السباع تكون اشد شراسة وافتراسا لطلب الصيد مادام ضوء القمر في ازدياد إلى النصف الثاني من الشهر [٦٨].

أما تأثير اكتمال القمر على النبات فيوضحها صاحب كتاب عجائب الملكوت بالقول (ان الأشجار والغروس اذا غرست والقمر زائد في الضوء ، مقبل إلى وسط السماء علقت ، وكبرت ، ونشأت وحملت وأسرعت النبات كذلك تكون الرياحين والبقول والأعشاب في ذلك الوقت أزيد نشراً ، وأكثر نمواً ...كذلك القثاء والقرع والخيار والبطيخ ينمو نمواً بالغا عند ازدياد الضوء ... أما المعادن والينابيع فتزداد هي الأخرى عند اكتمال القمر. [٦٩]

ومع البشر نجد القمر رفيق المتوحدين ، لم يجدوا بديلا عنه في عالم الليل والسكون والذكريات ، فهو الذي يزرع بذور الأحلام والرؤى في ليلة القمر ، وهو الذي يفتح كوة الوجود على الأمل، وتأملات الشاعر تدخله في الليلة المقمرة إلى عوالم الكائنات ، وأسرار الطبيعة ، فثمة أسرار مدهشة في الطبيعة الكونية لا يفتش عنها الا الشاعر ربما لكون الشاعر يلتقي مع ما كائنات شعريّة ، والشاعر دون شك هو ذاته كائن شعري يتهجى لغة الطبيعة وأحرف الكائنات، ويصغي إلى الرعد والبحر والمطر ، والشجر فيسمع ما لم يسمعه الآخرون من خلال إحساس خلاق وخيالات لا تخطر ببال احد ، فما الذي تسترقه الشاعرة نازك الملائكة من حديث مؤامرات الكائنات ، وماذا تخفي من أسرارها ؟! :

" وسوف نفتش حتى الأريج وحتى المطر ْ
نقلب حتى خيوط الضياء ، ولون الزهر ْ
ونفضح كل ما دبّرت كل جاسوسةٍ زنبقهْ
وما روجته العصافير بالرقص والزقزقة ْ
وإنا لنعلم ان القمر
تآمر فلننصب المشنقة ْ" [٧٠]

فخيانة الأمانة ثمنها الموت ، والموت ليس للرجال الخونة ، أو البشر الخائنين بلادهم ، بل هو عقاب كل كائنات الوجود ، لان الخيانة انتقاص في الوجود والاستهزاء بالوجود وبكائنات الوجود والقمر شاهد الوجود فإذا خان قدره الذي رسمه له وهو إضفاء الجمال والحق والرحمة على الطبيعة الكونية حينئذ يستحق العقاب والشاعرة حققت معادلاً موضوعياً ثرياً بين الفكر التقدمي الذي جاء ليحقق حلم المحرومين والطبقة العاملة ، وبين القمر الذي يحقق هذا المعادل عبر اشراقه وبهائه ومشاركته الإنسانية ، وبروح طفليه وببساطة آسرة أوحت لنا اللوحة التأملية إلى معان إنسانية وسياسية وكونية دافقة بالشاعرية ذات التعبيرية الهادئة والهادفة معاً .

ومن هنا يتضح ان الشعر يتعلق بنهر نابع من وعي شعري متقد ، يعرف مجراه ومصبه هذا الشعر الذي يلفت البصر والأشياء باتجاه الباطن ويريد الإمساك بالمكثف من الوجود ، إذ طريق الحياة طريق يتم الذهاب إليه من لحظة كثافة لأخرى .

هوامش البحث

(١) ينظر : عالم الافلاك ص / ١٣٩.
(٢) تنظر : رسائل اخوان الصفا : مج ٢ / ٤٦٤ .
(٣) الفنان والإنسان ، ص/ ٣٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص/٣٠.
(٥) اللغة العليا (النظرية الشعريّة)، جون كوين ،ترجمة د. احمد درويش ، ص / ٩.
(٦) النقد الادبي ، كارلو دميلو ن ص/١٣٥.
(٧) الصورة الشعريّة، دي لويس ، ص/١٦٤.
(٨) اللغة العليا ص/١٥٢.
(٩) المصدر السابق ،ص/١٥٧.
(١٠) اللغة العليا (النظرية الشعريّة)، جون كوين ،ترجمة د. احمد درويش ص / ٢٧١.
(١١) انتاج الدلالة الادبية ، د. صلاح فضل ، ص/١٠٣ .
(١٢) النظرية الادبية المعاصرة ، ص/١٦٢.
(١٣) اللغة العليا ، ص/٢١٦.
(١٤) الطاقة الخفية والحاسة السادسة ، د. شفيق رضوان ، ص/٢٥٢.
(١٥) اللغة العليا ، ص / ٢٦٢ .
(١٦) ديوان السياب ، بدر شاكر السياب ، ٤٧٤/١.
(١٧) اللغة العليا ، ص/٢٦٢ .
(١٨) تنظر القصيدة في كتاب اللغة العليا ، ص / ٢٧٣.
(١٩) جيولوجيا القمر ، د. علي السكري ، ص/٢٨-٢٩ ، مصدر سابق
(٢٠) رسائل اخوان الصفا ، مج٢ / ٤٤.
(٢١) جماليات المكان ، جاستون باشلار ، ص/٢٥٩.
(٢٢) المصدر نفسه ، ص/٢٦٠.
(٢٣) المصدر نفسه ، ص/٢٦١.
(٢٤) المصدر نفسه ، ص/٢٢٥.
(٢٥) المصدر نفسه ، ص / ٢٥٧.
(٢٦) المصدر نفسه والصفحة.
(٢٧) المصدر نفسه والصفحة.
(٢٨) جيولوجية القمر ، د. علي السكري ، ص٢٩.
(٢٩) قصيدة (الحوت والقمر) القاها الشاعر عبد الجبار العتابي في مقر الاتحاد العام للادباء والكتاب في القطر العراقي ، بغداد في ٢٠٠٠/٢/٣م ، ولدى الباحث نسخه مخطوطة بخط الشاعر رحمه الله .
(٣٠) الاسطورة والزمن ، ترجمة ابراهيم جبرا ، ص/٤٣-٤٤.
(٣١) اللغة العليا ، جون كوين ، ص/٢٧٣، وان "داخل الخيال الرومانسي يجد الشعر والحلم توحدهما.
(٣٢) اللغة العليا ، ص/١٩٨٠.
(٣٣) شجرة القمر ، المقدمة ، ص٧ ، نازك الملائكة.
(٣٤) شجرة القمر ، ص /١٩.
(٣٥) ديوان شجرة القمر ، ص/١٩.
(٣٦) ديوان شجرة القمر ، صم٢٢.
(٣٧) المقدمة ، ص/٧.
(٣٨) المقدمة ، ص/٨.
(٣٩) شجرة القمر ، ص/٢٦.
(٤٠) شجرة القمر ، ص/٢٨.
(٤١) مقدمة شجرة القمر ، ص/٨.
(٤٢) شجرة القمر ، ص/٣٥.

(٤٣) فلسفة الفن عن سوزان لانجر ، ص/٩٦.
(٤٤) انتاج الدلالة الادبية ، د. صلاح فضل ، ص/١٠٣.
(٤٥) ينظر : الصومعة والشرفة الحمراء ، دراسة نقدية في شعر علي محمود طه ، نازك الملائكة ، ص٢٦٦.
(٤٦) ديوان ليالي الملاح التائه ، ص١٠ .
(٤٧) ديوان المعبد الغريق ، قصيدة الوصية ، ص١٣٥ .
(٤٨) ديوان شناشيل بنت الجلبي قصيدة ليلة وانتظار ص٣٦٣.
(٤٩) ديوان الشناشيل ص٣٣٠ .
(٥٠) ديوان الشناشيل ص٣٤٩ .
(٥١) ديوان منزل الاقنان ، قصيدة الليلة الاخيرة ، ص١٧٢.
(٥٢) ديوان انشودة المطر ، قصيدة الانشوة ، ص٣٧٢.
(٥٣) ديوان : شجرة القمر ، نازك الملائكة ، قصيدة مشغولة في آذار ، ص٧١.
(٥٤) الدراسات الادبية ، ص١١.
(٥٥) المجموعة الشعريّة الكاملة سعدي يوسف ، قصيدة القصيدة ص١٣٣.
(٥٦) تنظر عجائب الملكوت ، مصدر سابق ، ويرى المؤلف ان السباع تكون اشد شراسة وافتراساً ما دام ضوء القمر شديداً ، وذلك طلباً للعيش ، كذلك لدعة العقرب ، ولسعة الثعبان تشتد عند اكتمال القمر : ينظر المصدر ، ص،١٩٧.
(٥٧) ديوان : ايليا ابي ماضي ، تقديم جبران خليل جبران ، قصيدة (ليلة قمرية) في مجلة الهلال المصرية ، وفي الديوان (ابن الليل) ص:٤٧٨-٤٧٩. ولأبي ماضي قصائد متعددة في توصيف القمر وشعريته منها ، قصائده : الطفلة والقمر ، ص ٤٣٧-٤٣٩ ، مصرع القمر ٤٩٣-٢٩٦ ، والبدر الآفل ، ص ٦٨٤-٦٨٧ ، ينظر المصدر السابق نفسه .
(٥٨) المصدر نفسه ، ص
(٥٩) المصدر نفسه ،
(٦٠) مايكوفسكي ،قصائد مختارة ترجمها عن الروسية حسب الشيخ جعفر ، ص٦٢.
(٦١) قصيدة ، قمر للكلاب ، يعقوب جواد ، جريدة الجمهورية ، العدد (١٠٠٢٥) في ١٩٩٩/٥/١١.
(٦٢) ديوان:ابواب الليل عبد الرحيم صالح الرحيم ، قصيدة عند محاق القمر :ص :٥.
(٦٣) ديوان : ابواب الليل ، قصيدة عند محاق القمر ، ص٦.
(٦٤) ديوان ابن المعتز ، شرح يوسف فرحات ص١٧.
(٦٥) النقد الادبي كارلو وميلو، ترجمة كيتي سالم ، ص١٣٥.
(٦٦) النظرية الادبية المعاصرة ، رامان سلون، ترجمة : سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط١ ، بيروت ١٩٩٦ ص ٢٠ .
(٦٧) النقد الادبي، كارلو وميلو ،ص١٤٢، مصدر سابق.
(٦٨) ينظر : عجائب الملكوت مصدر سابق ص١٩٧.
(٦٩) ينظر عجائب الملكوت ،ص١٩٦ وما بعدها .
(٧٠) (ديوان شجرة القمر "قصيدة ثلاث أغنيات شيوعية ص١٧٥)

ثبت المصادر والمراجع

- الاسطورة والزمن ، ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠.
- انتاج الدلالة الادبية ، د. صلاح فضل ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١، ١٩٨٧.
- جمالية المكان ، جاستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٨٠.
- جيولوجيا القمر ، د. علي العسكري ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٠.
- ديوان : ابن المعتز ، شرح يوسف شكري فرحان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢.
- ديوان : ايليا ابي ماضي ، تقديم جبران خليل جبران ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٢.
- ديوان السياب ، بدر شاكر السياب ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٦.
- ديوان شجرة القمر ، نازك الملائكة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٦٨.
- رسائل اخوان الصفا ، المجلد الثاني ، دار بيروت ودار صادر ، لبنان ، بيروت ، ١٩٥٧.

- الصورة الشعريّة ، دي سي لويس ، ترجمة : د. احمد نصيف الجنابي ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، الكويت ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، ١٩٨٢.
- الصومعة والشرفة الحمراء (دراسة نقدية في شعر علي محمود طه) ، نازك الملائكة ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٩.
- الطاقة الخفية والحاسّة السادسة ، د. شفيق رضوان ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، ط١ ، ٢٠٠٤.
- عالم الافلاك ، د. إبراهيم أحمد ، المكتبة الثقافية ،العدد (٦٣) ، وزارة الثقافة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢.
- عجائب الملكوت ، عبد الله الزاهد ، منشورات ذوي القربى ، قم ، ايران ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ .
- فلسفة الفن عند سوزان لانجر ، ترجمة : راضي الحكيم ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٦.
- الفنان والإنسان ، د. زكريا ابراهيم ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٣.
- اللغة العليا (النظرية الشعريّة) ، جون كوين ، ترجمة احمد درويش ، المجلس الاعلى للثقافة والفنون ، القاهرة ، ١٩٩٥.
- مايكوفسكي (قصائد مختارة) ، ترجمها عن الروسية حسب الشيخ جعفر ، دار الشؤون العامة ، بغداد .
- المجموعة الشعريّة الكاملة ، سعدي يوسف ، مطبعة الاديب البغدادية ، ١٩٧٨ .
- النظرية الادبية المعاصرة ، رامان سلون ، ترجمة : سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦.
- النقد الادبي ، كارلو دميلو ، ترجمة : كيتي سالم ، منشورات عديدات ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٧٣.

الدوريات والصحف

- جريدة الجمهورية ، العدد (١٠٠٢٥) ، في ١٩٩٩/٥/١١ ، قصيدة : (قمر للكلاب) ، شعر : يعقوب جواد .

المخطوطات

- ديوان : ابواب الليل ، رحيم صالح رحيم ، مطبوعة بالالة الطابعة ، مكتب الحسنين ، الديوانية ٢٠٠١ م ، ولدى الباحث نسخه منه .
- قصيدة (الحوت والقمر) ، عبد الجبار العتابي ، القاها في مقر الاتحاد العام للادباء والكتاب في القطر العراقي ، بغداد في ٢٠٠٠/٢/٣ ، ولدى الباحث نسخه بخط الشاعر رحمه الله.

Abstract

The proticity of the Universe
The poetic Moon as an Example Abstract

The Universe has its own hidden secrets, are stirring Man's surprise in general and the poet in particular, Man remains always to yearning for exploring the secrets of the universe. So, Man is associated with these secrets consciously and subconsciously. Since the moon and the sun as well, are the most salient co0smic phenomena, Man worshipped it (the moon) and the poet adored it.

From the charm of cosmic nature, the poet was born with his poetic imagination. He wakes the beauty in the dead rocks ,so, the moon is no longer mere a bulk of rocks . And the photos of the spaceships could not spoil the dreams of poets because the poet lavishes the world with his feelings and makes the universe poetic . Through the poet's depiction, he turns what is really frigid and lifeless into inspiring and sympolic direction, and changing the limited in this universe into the unlimited .

Through the poetic moon, Once can pass from the text to the world searching for the poeticity of the universe represented by the poeticity of the moon . In the

poeticity of the moon as seen by Malarmaih "lies a characteristic features which is considered one of the most strange features in Art. It is the sensitivity of the universe . This what constitutes the poetic feature ".